

## حرية عبد البرّ وعبودية أحرار!

### "يا إخوة بعد أن أعتقتم من الخطيئة أصبحتم عبيداً للبرّ"

بولس رسول الحرية، فكيف يقول إنه "بعد أن نتحرّر من عبودية الخطيئة نصير عبيداً للبرّ"؟ لقد امتازت كتابات بولس الرسول بفنون عديدة منها "التضاد"، أي يستخدم صوراً متعاكسة ليوضح المعنى. لذلك يتابع الرسول: "فإنكم كما جعلتم أعضاءكم عبيداً للنجاسة والإثم للإثم، كذلك اجعلوا أعضاءكم عبيداً للبرّ قداسة"، وهنا يظهر المعنى أوضح.

يستخدم بولس هنا عبارة "عبد"، فهي صورة شائعة في ذلك الزمان لإنسان يشتري وليس له بعد سلطة على ذاته. فعبد الخطيئة تقوده اللذات، وعبد البرّ اشتري بدم المسيح، فيتوجّب عليه إذن أن يصير ذاته "عبداً" للبرّ للقداسة: "لسنا بعد لأنفسنا".

لكن السؤال الأنثروبولوجي العميق مطروح فعلاً: ما الذي يحرّر الإنسان؟ أهى الخطيئة أم البرّ؟ للبعض يحرّر الإنسان التهافتُ على اللذات وإشباع كلّ رغبة. لآخرين لا يحرّر الإنسان شبع اللذات، فهذه الأخيرة كالماء المالح كلما شربته كلما ازددت عطشاً، بل يحرّر الإنسان البرّ، أي تحرّره من الخطيئة.

آية حركة تحرّر تقود، إذن، إلى الحرية الحقيقية للإنسان؟ الجميع يعدون الإنسان بالحرية، ولم تصدق الوعود! يكلمنا الكتاب المقدّس عن "حرية أبناء الله"، وخاطب يسوع تلاميذه قائلاً "لست أدعوكم بعد عبيداً بل إخوة"! حركة التحرّر هذه بحسب الكتاب المقدّس هي حركة البرّ، أي الالتزام بالفضائل المسيحية وهذا ما يعنيه بولس: "اجعلوا أعضاءكم عبيداً للبرّ للقداسة". يحرّر الإنسان النّسكُ بالمعنى العميق له. للنسك مظهر سلبيّ ومعنى إيجابي. فالنسك يتطلّب أعمالاً قاسية في الفضائل، مثل الصوم والسجود والمسامحة والإحسان... الخ، وكلّها للوهلة الأولى صعبة وتحتاج "لغصبيّ" شديد: "ملكوت الله يفتنّب اغتصاباً" (متى ١١، ١٢) وهذا ما يسمّيه بولس "عبودية البرّ" وهو الوجه السلبيّ للنسك. لكن حياة الفضيلة، وهذه العبودية الظاهرية في المرحلة الأولى، هي التي تقودنا إلى التحرّر من أهوائنا وميولنا المتسلّطة والقاسية وتقودنا إلى حياة البرّ، أي الحرية، وهنا هو الوجه الإيجابي

للسك، وهو الشعور بالتحرر الحقيقي. عندها نصير "أبناء الله" لا يتسلط علينا أي شيء وإنما نحكم كروحانيين على كل الأشياء.

الإنسان رجلُ الرغبات تقوده شهواته! فإن اشتهى ما هو دنيءٌ من الدنيا صار عبداً للذات التي لا تشبع، فتسلط عليه هذه ويتشبه عندها بالحيوانات كإنسان جسداني؛ أو يشتهي السماويات، وهذه تُغضب بالغضب والجهاد، عندها يجد صورته التي يبحث عنها في عمق أعماقه، صورة الله التي خلق عليها. إن الفضيلة هي الطبيعية، وإن كان تحقيقها في عالمنا صعباً، والرذيلة هي عكس الطبيعة وقهر لها، وإن كان الزلل فيها في عالمنا سهلاً. لذلك حين نستعبد أنفسنا للبر (نغضب ذواتنا في الجهاد) نتحرر، وإذا ما تركنا الخطيئة تتسلط علينا استعبدنا حقاً.

"اعرفوا الحق والحق يحرككم"، "لأنه حيث روح الله هناك الحرية" (٢ كور ٣، ١٧). نعم نحن الأحرار عبيد يسوع المسيح، "بولس عبد يسوع المسيح" هذا هو الحر الأكبر، وبهذه الكلمات افتتح بولس أغلب رسائله معرفاً مستمعيه عنه، ليناديهم وراءه إلى الحرية الحقيقية.

طاعة يسوع المسيح تعني حفظ وصاياه والجد وراءه في طريق الحرية. طاعتنا ليسوع تحررنا. وهذه الطاعة هي أبعد ما تكون إكراهاً وخضوعاً سلبيّاً؛ فهي انضمام اختياري حر إلى القصد الإلهي لأننا أحببناه، واخترنا أن نحيا به وله. نهاية "وعاقبة هذا البر هي الحياة الأبدية" والحرية. إن الطاعة ليسوع المسيح هي التعبير عن محبتنا لله وكرهنا للخطيئة "والأمور التي يُستحى منها". عندما يكون الإنسان "عبداً للخطيئة لا يستطيع إظهار طاعته لله" (رو ٧، ١٤). ليست الطاعة ليسوع عبودية، وإن كانت تجعلنا لسنا لأنفسنا، إنها خطوة حب وثقة. لذا يتكلم الكتاب عن: "محبتي وحافظي وصايا الله" (خروج ٢٠، ٦).

الإنسان تواق إلى السماويات، لكنه مأسور من ضعفاته وعبء لبيئة تشده إلى أسفل، فهو يغضب ذاته وينسك ويتعبد بالبر كالعبد ليسوع المسيح، حتى إذا ما صعد في السلم الروحية يبدأ يتلمس حرية أبناء الله، فيعرف الحق وهذا الحق يحرره. هذه الخبرات في الجهاد والتحرر تجعل الإنسان يصرخ كل حين، كما هتف الرسل السجناء كالعبيد، "الأفضل أن نطيع الله لا البشر" (أع ٤، ١٩).

حوار حاد يدور بين يسوع واليهود، هو يصفهم بالعبيد (للخطيئة) وهم يدعون الحرية (القومية): قالوا له: "إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحد قط، أجابهم يسوع: الحق أقول لكم إن كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة، والعبد لا يبقى في البيت للأبد، أما الابن فيبقى للأبد... فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً" (يو ٨، ٣٢-٣٦)!

هذه هي حرية عبيد البرّ، إنّها الحرّبة الحقيقيّة التي تمحو أتعاب البرّ وعبوديتها. أمّا حرّيات الناس التي لا حقّ فيها لا تحرّر. إشباع اللذات لا يحقّق الذات البشريّة بل يستعبدّها، وأتعاب البرّ تحرّر الإنسان وتعتقه. يسوع هو محرّرنا لأنّه يجعلنا أبناء الله بالبرّ. هناك حرّية وراء مظاهر النسك السلبيّة التي تبدو كالعبوديّة، وهناك عبوديّة قاسية وراء كلّ خدعات التحرّر والإباحيّات. الإنسان في حركة شفاء من عبوديّة الخطيئة إلى حرّية البرّ، وهذه الحركة تتطلّب أن "نستعبد أعضائنا للبرّ" إلى القداسة التي تحرّرنا، آمين.